المقالات

الجيش العثماني

﴿ فرنسا والمانيا في البلاد العثمانية ﴾

لما نقلت الشركات البرقية خبر انقطاع العلائق السياسية بين الدولة العلية والدولة الفرنسوية كان هذا السؤال اول سؤال وجهه القارىء الى نفسه وهو : ما هي حالة الجيش العثماني الآن هل في استطاعته ان يرد عن البلاد غارة عدو قوي على افتراض شبوب نار الحرب وان كان هذا الافتراض امرًا مستحيلاً كما يعلمه الواقفون على العلائق الدولية . ولماذا غيرت فرنسا سياستها مع الدولة العلية فجافتها هذه المجافاة مع انها صديقتها الكبرى من ايام الملك فرنسيس الاول الذي حالفها حتى على الاوروبيين انفسهم . وجوابًا عن هذا السؤال ننقل عن العالم البلجيكي المسيو اوفر برش مدير التعليم العلمي العالي في وزارة المعارف في بلجيكا ما كتبه عن الجيش العثماني وعلائق فرنسا والمانيا بالدولة العلية في كتاب نشره في العام الماضي وعنوانه « سياحة في الشرق . تركيا واليونان » فنقول

قال الكاتب المذكور في الصفحة ٣٣٧ يصف الجيش العثماني الذي شاهده منذ سنتين في حفلة السلاملك في الاستانة ما خلاصته

« ولقد قال لي وكيل بلجيكا في الاستانة في يوم جمعة . اليوم تُعقد حفلة السلاملك فاذهب لمشاهدتها ولا تفوتها . فقصدت الجامع الحميدي مع بعض الرفاق في الساعة العاشرة لان الحفلة تبتدىء عند الظهر فوصلت الى الكشك الخاص بالسفراء والاجانب وهو قائم تجاه الجامع فوجدنا فيه ضابطًا تركيًا من الطف الضباط واظرفهم فاستقبلنا وادخلنا حالما اريناه اوراقنا . وكان دخولنا الى قاعة الزائرين ولم يكن فيها سوى اربع نوافذ غاصة بالانكليز والانكليزيات ففتشنا عن مكان امام النوافذ نجلس فيه ونرى منه فلم نجد مكانًا والانكليز جريًا على عادتهم لم يتنازل احد منهم عن مكانه لواحدة من السيدات اللواتي كن معنا . ولكن وكيل بلجيكا كان قد قال لنا انكم اذا لم تجدوا مكانًا موافقًا في النوافذ

فاقصدوا السطح المحاذي للقاعة واتخذوا لكم مجالس فيه . فذهبنا الى السطح وجلسنا في الصف الاول فلم يلبث ان تبعنا بعض البلجيكيين وكثيرون من الالمانيين الذين كانوا يتكلمون بصوت مرتفع و يبصقون الى بعيد

فقضينا هناك ساعتين في الانتظار واذا بالسفراء وعيالهم قد بدت طلائعهم وكانوا يلبسون ملابس متناهية في الفخفخة والزينة لان الحكومات توصي سفراءها في جميع بلاد الشرق ان يُحسنوا اتقان الزينة الخارجية . و بعد ذلك وصلت الجنود

وكان اول من وصل منهم الاي المشاة تتقدمه الموسيقى العسكرية . فمرَّ امامنا بنظام بديع وقوة اعجبنا بها . وكانت جنوده تلبس الطربوش فكان لها به منظر جميل لان الطربوش يكبر قامة الانسان ويجعل له مرأى حربياً مدهشاً . وكانت الموسيقى التي تتقدمهم تصدح بالنشيد الالماني ببراعة واحكام يستلبان الالباب . وقد كان بجانبي الماني كان من ضباط الجيش الالماني فجعل يشير الى ضباط الجيش العثماني وهو يقول . هذا فلان من كولينجسبرج وذاك فلان من فرانكفور وهذا فلان من كوبلانس . ثم ان هذه الجنود اصطفت صفين على جانبي الطريق . ولم تفرغ من ذلك حتى طلعت طلائع الاي الفرسان تتقدمة الصنوج المفرحة التي تقرع انغاماً مرفصة والذي يملأ منظره العين بهجة والقلب سروراً . فقصد هذا الآلاي السهل المخصص بالمركبات واصطف فيه

واذا بالرجل الالماني الذي تقدم ذكره قد اخذ يقول « انظروا انظروا لقد جاء الحرس السلطاني . جاء ابطال ثساليا اشجع جنود الارض كلها . انظروا انظروا فانهم جميعاً تحت قيادة ضباطنا ولذلك لا يغلبهم احد . فالتفتنا فوجدنا الجنود الزواف قد بدت وعلى رؤوسها العمائم الخضراء وكلهم من نخبة رجال الجيش العثماني . وفي هذه الجنود قال الجنرال سكوبلف يوم حصار بلفنا « اذاً قد عزم اصحاب العمائم الخضراء على منعي من اختراق هذا المربع ما لم يُقتلوا عن آخرهم » وكانت هذه الجنود سائرة نحو قصر يلدز القائم على مسافة ثلاثمائة متر من الجامع الحميدي

ثم تلتهم جنود البحرية وجاء بعدهم الزواف لابسو الطرابيش وهم رجال حسنو المنظر من فرقهم الى قدمهم . وكان منظرهم ومشيتهم يدلان على انهم من ذلك النسل القادر القوي . وقد قابلتهم في ذهني بالجنود اليونانية التي رايتها في آثينا فعجبت كيف خطر لليونان ان يتوقعوا النصر لجنودهم في حربهم مع الدولة التي لديها جنود كهؤلاء الجنود . ولا انكر ان في الجيش اليوناني رجالاً اقوياء ولكني ارى ان الجنود اليونانية على الاجمال لا تُقاس

بالجند العثماني . اليس الاميرال جولين دي لا كرافيير هو الذي قال « ان للجندي العثماني صفات حربية جليلة . فاذا ولي قيادته ضباط خبيرون ادهش العالم باعماله كما ادهشه في مضى . وليس ينقص الجيش العثماني جنود او قواد كبار ولكنه ينقصه ضباط صغار » وقد ادركت المانيا هذا النقص فتقربت من الدولة العثمانية لاصلاح جيشها رغبة في الاعتماد عليه في اوقات الشدة وتزلفاً الى الحكومة لتمنحها في الاناضول الامتيازات التي تمني نفسها بها فضلاً عن اتخاذها جيش الدولة سوراً دون روسيا

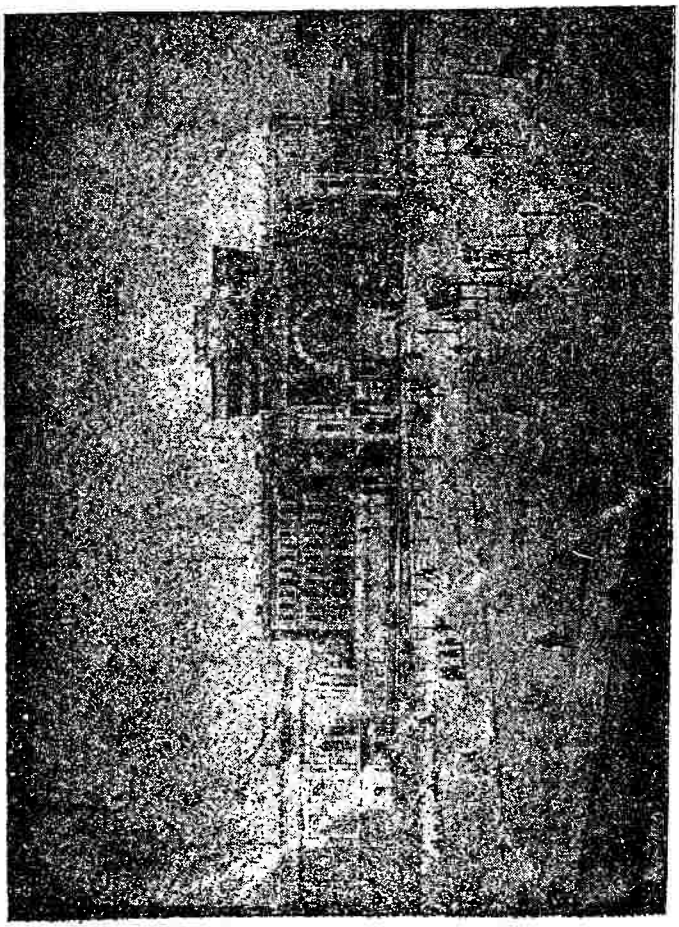

﴿ نظارة الحربية في الاستانة ﴾

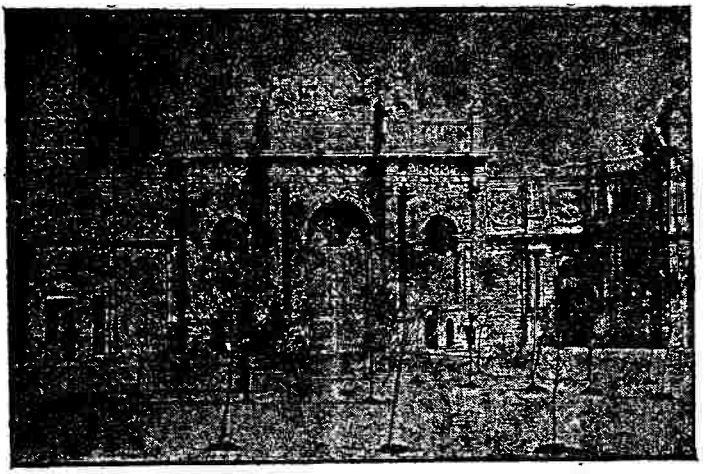

﴿ باب السر عسكرية في الاستانة ﴾

وهو مقام قائد الجيش العام

ولما شاهدتُ ما شاهدتُ من نظام الجيش العثماني وترتيبه اخذت اقول في نفسي ان عدم مداخلة اوربا ايام الحوادث الارمنية ناشيءٌ عن اسباب قوية ربما كان منها الخوف من حراب الجنود العثمانية

ولكن ما لنا ولهذه الامور فلنعد الى حفلة السلاملك . فان الجنود ما انتهت من الاصطفاف في ثلاثة صفوف من الجامع الى سراي يلدز حتى قدمت فرقة واخذت تكنس الطريق وتذر فيها الرمل النظيف . ثم جاءت فرقة اخرى وصارت تنفض ملابس الجنود التي كانت مصطفة . وبعد برهة انتصف النهار وخرج الموكب السلطاني من قصر يلدز. فصدحت حينئذ الموسيقى وسرى في الجمع ارتعاش فتطاولت الاعناق الى الموكب . فمر فيه رجال الدولة مع ابنائهم ومركبات الحرم السلطاني والموظفون بملابسهم الرسمية . ثم مرت المركبة السلطانية تجرها جياد كريمة وجلالة السلطان جالس فيها بهيئة تدل على عدم الاكتراث بشيءٍ مما حوله . ولما دنت المركبة من كشك السلاملك هتف الالمانيون الذين كانوا معنا هتافاً شديداً اكراماً لجلالته فرفع جلالته راسه اليهم وحينئذ استنار وجهه بابتسام ثم سلم عليهم باحناء الراس وظلت المركبة سائرة حتى انتهت الى الجامع

وفي اثناء الصلاة جاءنا احد رجال التشريفات ودعانا باسم جلالة السلطان الى تناول المرطبات في حديقة من اجمل الحدائق فاجبنا وتحققنا حسن الضيافة في قصر يلدز

و بعد الصلاة انتظم سلك الجنود كما كان وخرج جلالة السلطان عائداً في « فايتون» يجرها فرسان ابيضان كريمان وكان جلالته قابضاً على عنانهما بيده ووراء المركبة رجال الدولة واكابر موظفيها مشاة يتبعونها

هذا ما قاله السائح عن الجيش العثماني . اما ما قاله عن علائق فرنسا والمانيا بالدولة فهذه خلاصته . قال

كنت احادث بعضاً من راهبات المحبة الفرنسويات في طريقنا الى « بروصه » فسالتهن اليس الافضل لكنّ ان تحتمين بالمانيا في البلاد العثمانية . فصحن جميعاً من فم واحد « احمنا يارب من حماية المانيا » ثم قالت احداهن ان المانيا امبراطورية بروتستانتية فكيف تحمي الكاثوليك حماية حقيقية . ومع ذلك فاننا لا نطلب حماية دولة اجنبية ونترك وطننا . وقد قلن ذلك والدموع في عيونهن

و بعد برهة اخذ احد المرسلين الحاضرين يشرح لي اسباب الزحام الشديد القائم بين فرنسا والمانيا في البلاد العثمانية . فقال ان فرنسا كانت في عام ١٨٩٢ تبيع من بضائعها في الاسواق العثمانية ما قيمته ٦٠ مليون فرنك فنقصت هذه القيمة في عام ١٨٩٣ الى ٥٦ مليوناً وفي عام ١٨٩٤ الى ٥٣ مليوناً وفي ١٨٩٥ الى ٥١ مليوناً وفي ١٨٩٦ الى ٤١ مليوناً وفي ١٨٩٧ الى ٣٩ مليوناً اي ان قيمة ما تبيعه فرنسا في البلاد العثمانية لم تعد تساوي اليوم ١١ في المائة من مجموع المبيعات الاوروبية . اما المانيا فلم تكن لها تجارة مع تركيا في سنة ١٨٧٠ ولكن لم تات هذه السنة حتى بلغت تجارتها معها ٤٠ مليون فرنك فكأنها في مدة ثلاثين سنة قد ساوت فرنسا التي مضت عليها قرون وتجارتها موصولة الاسباب مع البلاد العثمانية

وان سألت عن اسباب تقدم المانيا ونكوص فرنسا اجبتك ان المعامل الفرنسوية تعتمد بالاكثر في ترويج بضائعها على « عملاء » من اليونان والالمان والايطاليان فيخدعونها و يربحون على ظهرها . اما المعامل الالمانية فانها ترسل عمالاً المانيين مخصوصين من قبلها وتتخذ لها عملاء دائمين في الاسواق المهمة فيلح هولاء العمال والعملاء في سبيل عرض بضائعهم وتصريفها الحاحاً يفضي الى ترويجها . وفضلاً عن ذلك فان لهم شركة كبيرة تدعى شركة التصدير وهي ذات فروع في مصر واليونان والاستانة وسالونيك وازمير ومرسين و بيروت وحلب ودمشق و يافا وحيفا و بروصه . وهذه الفروع تعرض على المشترين جميع اصناف

البضائع التي يطلبونها ويكون لديها مثال منها لان المشترين في الشرق يلذ لهم شراء الاشياء التي يشاهدونها ويكرهون الشراء بلا مشاهدة ولا فحص. وما عدا هذا فان المعامل الالمانية تصنع بضائعها حسنة الظواهر رخيصة الثمن طبقاً للذوق الشرقي. واما المعامل الفرنسوية فانها تحسب انه يجب على ابن الشرق ان يخضع لذوق ابن باريز ولذلك لا تصنع بضائعها الا على ذوقها. وقد آلت المانيا على نفسها ان تحتكر جميع السكك الحديدية في الاناضول فاذا تم لها ذلك صارت صاحبة الكلمة التجارية العليا فيها ولم يبق لفرنسا سوى الخطوط الحديدية الصغيرة في سوريا. فمسكينة انت يافرنسا ما هذا النكوص امام المانيا. اذكرْ انه لم يكن احد في القرن السادس عشر قادراً على الاتجار في البلاد العثمانية الا بواسطتنا وتحت رايتنا بناء على الامتيازات التي كانت لنا. اما الآن فقد سبقنا مناظرونا. ولا ريب ان ذلك عقاب لنا من الله على خطيئة الملك فرنسيس الاول. فان هذا الملك خان اوربا في ذلك الزمان وحالف الدولة العثمانية عليها. فكافأته الدولة على ذلك بمنحها اياه الامتيازات التي تقدم ذكرها والتي كانت كأنها الثلاثون درهماً التي قبضها يهوذا. والغريب العجيب ان يكون فرنسيس الاول قد حالف تركيا على امبراطرة الالمان الذين كانوا اعداءه وان تركيا تحالف اليوم عليه امبراطرة الالمان الذين هم اعداء فرنسا »

سوريا القديمة والحديثة

بقلم حضرة العالم الفاضل جبرائيل افندي ضومط استاذ البيان في الكلية الاميركية في بيروت وهي الخطابة التي ألقاها في الحفلة السنوية التي عقدتها هذه الكلية في ١٠ يوليو الماضي ومنحت جنابه فيها رتبة معلم في العلوم اعترافاً بفضله

ايها السادة والسيدات الكرام

بعد الحمد والدعاء اعتذر اليكم عن نفسي اني لست خطيباً ثم استأذنكم ان ابدأ بموضوعي رأساً فاقول

سوريا على ما قاله كثيرون من ثقاة الغربيين اسم مقتطع من اشوريا يعني بلاد اشور وقد ورد في كتب متقدمي المؤرخين وثقاتهم كهرودتوس وامثاله واراد وا به كل البلاد التي يحدها الفرات والدجلة الى خليج فارس شرقاً والبحر المتوسط غرباً وآسيا الصغرى شمالاً والعربية جنوباً. الا ان المتاخرين عن اولئك اطلقوا هذا الاسم على ما هو الشائع الآن

اعني على جزء من هذه البلاد يحده خطٌ يمرّ بخليج اسكندرونه على موازاة خطوط العرض شمالاً و بعض الفرات و بادية الشام شرقاً والعربية جنوباً والبحر المتوسط غرباً

﴿ تقسيم سوريا الطبيعي ﴾

ونقسم سوريا الى ثلاثة اقسام طبيعية (الاول) سوريا الشمالية وتبتدئ من جبال طورس شمالاً وتنتهي عند مدخل حماه جنوباً ومن مدنها حلب وانطاكية وحماه . (الثاني) سوريا المتوسطة وتبتدىء من مدخل حماه شمالاً وتنتهي جنوبي صور جنوباً . ومن مدنها المشهورة في الداخلية حمص وتدمر ودمشق و بعلبك وعلى الساحل طرابلس وجبيل و بيروت وصيدا وصور . (الثالث) سوريا الجنوبية وهي ما بقي من سوريا وتشتمل على ما يُعرف قديماً ببلاد فلسطين او ارض كنعان من مياه الحولة شمالاً الى العريش جنوباً . ومن مدنها الساحلية عكا وحيفا و يافا وغزه والعريش ومن الداخلية طبريه والناصره ونابلس واورشليم والخليل

﴿ تقسيم سوريا السياسي ﴾

اما تقسيم سوريا السياسي فلما كان ولا يزال يختلف باختلاف الازمنة رايت ان ادع التفصيل فيه واكتفي بذكر الامم التي سكنت البلاد من اول عهد التاريخ الى الآن واشير الى مواطنهم فيها مع الالماع الى ما طرأ على مواطن تلك الامم من التقلبات وما تعاقب عليهم من الدول الى ان صارت جميع هذه الشعوب والممالك شعباً واحداً ومملكة واحدة عثمانية في ايام فخر سلاطيننا العظام جلالة مولانا عبد الحميد خان . والغاية من كل ذلك ان اتوصل الى بيان اسباب عظمة سوريا قديماً وما تُبنى عليه عظمتها في المستقبل . والذي اساله من كرم اخلاقكم ان تعيروني جانباً من التفاتكم ولكم عليّ ان اختصر بقدر ما في الامكان

ايها السادة . في ايام الآباء اي من نحو اربعة الآف سنة تقريباً كان العمالقة والحوريون يسكنون البلاد جنوبي بحيرة لوط الى راس خليج العقبة والرفائيون شرقي الاردن من ارض باشان شمالاً الى وادي ارنون جنوباً . والحثيون والاموريون والعمونيون الفلسطينيون غربي بحيرة لوط الى شواطئ المتوسط . واما بقية البلاد غربي الاردن فكان اليبوسيون في اورشليم والحويّون في نابلس والكنعانيون في البلاد من جنوبي صور الى يافا واشقلون كل الساحل البحري ومعظم السهول الخصيبة فيما يليه من منابع الاردن الى مصبه في بحيرة لوط . وكان ايضاً الحثيون في سوريا الشمالية والاراميون والفينيقيون في سوريا المتوسطة

هولاء على السواحل واولئك في الداخلية

ثمّ بعد دخول الاسرائيليين ارض كنعان صارت شعوب سوريا ومواطنهم فيها على ما ياتي. العمالقة والفلسطينيون والادوميون والموابيون والعمونيون والاسرائيليون وبقايا الكنعانيين في سوريا الجنوبية. والاراميون والفينيقيون في مساكنهم الاولى في سوريا المتوسطة. والحثيون اسيادًا في سوريا الشمالية. وما زال الحال كذلك نحوًا من ثلاث مئة سنة تارةً يتقوى الموابيون والعمونيون وتارةً العمالقة والمديانيون وتارات الفلسطينيون الى ايام صموئيل النبي وكان الفلسطينيون حينئذٍ في منتهى قوتهم والاسرائيليون في منتهى ضعفهم ذلك لانهم كانوا قد تفرقت عصبيتهم وانحلت جامعة اسباطهم التي كانت لهم ايام يشوع. فسعى صموئيل النبي في ضم شملهم وتوحيد كلمتهم واقام عليهم ملكاً شاول ابن قيس من سبط بنيامين فملك اربعين سنة وقام عليهم بعده داود النبي فحارب حروبهم المشهورة وانتصر على اعدائهم والامم حواليه شمالاً وشرقًا وجنوبًا وغربًا. وفي ايامه بلغ اليهود منتهى عزهم وامتدت سلطتهم على كل سوريا الجنوبية وعلى سوريا المتوسطة ما عدا الساحل كل بلاد الاراميين حتى تجيء الى مدينة تفسح على الفرات شمالي تدمر. فصارت امم سوريا ومواطنهم فيها ايام داود وايام سليمان ابنه على ما ياتي

اليهود اسياد في سوريا الجنوبية واخوانهم وابناء عمهم الموابيون والعمونيون ومن لف لفهم عبيد مستتبعون لهم فيها ايضاً. والاراميون يؤدون الجزية للاسرائيليين في سوريا المتوسطة ما عدا السواحل البحرية على البحر من عكا جنوبًا الى ارواد شمالاً. والحثيون في سوريا الشمالية من حماه الى كركميش. الا ان الاراميين كانوا قبيل ذلك قد تداخلوا على الحثيين في كثير من مساكنهم الجنوبية وازاحوهم عنها الى الجهات الشمالية

لكن لم يلبث ان طرأ بعض التغيير على الحالة المارة. فان الاسرائيليين رجعوا بعد موت سليمان الى سالف تنافسهم وتخاذلهم فانقسمت مملكتهم الى مملكتين مملكة اسرائيل في الشمال ومملكة يهوذا في الجنوب فقضى بذلك على عزّ اليهود وخرج عن طاعتهم اكثر الامم الخاضعة لهم واستمر الحال على ذلك نحوًا من مئتي سنة وسوريا على ما نذكره: صور في الساحل سيدة البحار في المعمور وابناؤها منتشرون في العالم وبيدهم زمام التجارة كانما هم ابناء البريطانيين في الزمن الحاضر وربما كانوا اشد نشاطًا في الاعمال واكثر اقدامًا على الاسفار رغبة في المكاسب والارباح. ومملكتا يهوذا واسرائيل مما يلي الساحل تتسالمان تارة وتختصمان تارات. والاراميون في سوريا المتوسطة يتوثبون تارة على الاسرائيليين وتارةً على

الحثيين . واما في سوريا الشمالية فكان الحثيون قد تراجعت احوالهم وتقلص ظلهم بما كان من مناوأة الاشوريين اهل نينوى لهم فتركوا قادس عاصمتهم ايام رعمسيس الى كركميش على الفرات

وفي هذه الاثناء عظم شان الدولة الاشورية فاخذت تغزو الى سوريا كلما آنست من نفسها قوة او بالحري كلما قام على سريرها ملك يرغب في المجد العسكري من جهة وفي انتهاب الاموال من جهة اخرى وتكرّرت غزوات الاشوريين حتى كانت ايام سرجون احد عظماء ملوكهم فجهز هذا جيوشه وعبر الفرات الى كركميش فحاصرها وما زال عليها حتى استفتحها عنوةً ونقل اهلها الى بلاد اشور وهكذا كان فعل في دمشق والسامرة فصارت من ثم كل البلاد اعني سوريا الشمالية والمتوسطة وبعض الجنوبية ولايات اشورية ما عدا الساحل البحري واليهودية فانها بقيا على الجزية . واستمر الحال على ذلك الى ايام نبوخذنصر فوجه غاراته الى سوريا واجلت غزواته فيها عن انقراض استقلالية جميع شعوبها وصيرورتها ولاية بابلية يحكمها ولاةٌ من قبل البابليين . ثم جاء بعد البابليين الفرس وبعد الفرس اليونان ومن بعد اليونان الرومان وحكم الرومان سوريا نحوًا من سبعمئة سنة من سنة ستين قبل المسيح الى ان استخلصها العرب من ايديهم سنة ٦٣٨ بعد المسيح

ثم ما زالت سوريا في ايدي المسلمين تتداولها منهم دولة بعد اخرى الى ان كانت الحروب الصليبية فاستولى حينئذٍ الصليبيون على الشواطئ البحرية من انطاكية الى يافا وغزة . لكن لم تأتِ سنة ١٢٠٠ للمسيح وفي البلاد واحد منهم وذهبت آثارهم جملة

وفي بداءة الجيل الخامس عشر كانت غزوة تيمورلنك فخرب البلاد تخريباً وقد اكثر تيمور هذا من القتل والنهب والسبي بما لا تزال البلاد تذكره الى اليوم لشدة ما كان من وقعه في نفوسهم . واشد ما كان ضرره في البلاد انه اخذ من دمشق وسائر البلاد ارباب الفضل والصنائع وكل ماهر في فن من الفنون اي فنٍ كان وفرق هؤلاء الطوائف على رؤوس جنده وامرهم ان يوصلوهم الى سمرقند وهكذا فعلوا . والظاهر ان جنوده قتلوا اغلب هؤلاء وهم راجعون الى بلادهم فخسرت بذلك سوريا خسارة لم تعوض بعد

وفي سنة ١٥١٦ دخلت سوريا في حوزة العثمانيين وفي سنة ١٨٧٥ قدر الله لها ان اقام على سرير السلطنة العظمى جلالة الغازي مولانا السلطان عبد الحميد خان الثاني فدخلت على عهده الممالك العثمانية في طور جديد وستبلغ فيه بعونه تعالى ولا سيما سوريا مبلغاً من العزّ والعظمة لم يكن لها من قبل ان شاء الله

ايها السادة الكرام. لم يخطر في بالي اصلاً ان اتغلغل في تاريخ سوريا لا قديمًا ولا حديثًا انما اردت بما ذكرته من الفذلكة التاريخية ان احضر امامكم صورة اجمالية لسوريا منذ اول امرها الى اليوم توطئة للسؤالات الاربعة الآتية وهي :

« اولاً » ابناء من هم سكان سوريا الحاليين ؟

« ثانيًا » ماذا كان سبب عظمة سوريا قديمًا ؟

« ثالثًا » ماذا كان سبب انحطاطها الى الآن ؟

« رابعًا » بماذا تقوم عظمتها المستقبلة. وبعبارة اخرى بماذا ترجع الى مقامها الذي فقدته جملةً من مدة لا تزيد عن الخمسمائة سنة وانزاحت عن آخر موقف منه منذ تمّ فتح خليج السويس ؟

﴿ السؤال الاول ﴾

ونبدأ بالسؤال الاول اي ابناء من هم سكان سوريا الحاليين؟ والجواب عن هذا السؤال يستدعي معرفة الشعوب الذين كانوا في سوريا قديمًا والشعوب الذين في البلاد المحيطة بها ايضًا اما الشعوب الذين كانوا فيها في ايام ملوك اسرائيل فهم كما رأينا الادوميون والعمونيون والموابيون والاسرائيليون في سوريا الجنوبية والاراميون في سوريا المتوسطة والشمالية والفينيقيون في ساحل البحر. فان قيل وابن تذهب بالكنعانيين والحثيين؟ قلت اما الحثيون فكانوا على الراجح المسلطين على البلاد كالرومانيين بعدهم مثلاً لا سكانها الاصليين ولذلك فلما انقرضت دولتهم انقرضوا من سوريا وبقي اهلها الاصليون اعني الاراميين. واما الكنعانيون فاولى ان يلحقوا بالعبرانيين لان هؤلاء خالطوهم فزوجوهم وتزوجوا منهم من اول عهد اتصالهم بهم الى ايام السبي ولما كانوا اقل عددًا من العبرانيين غابت جنسيتهم في جنسية العبرانيين . وروّج هذه المخالطة والامتزاج ما كان بين الامتين من المقاربة في اللغة والاخلاق والعادات . وزاد في تعجيل الالتحام أنّ اليهود كانوا يرون الكنعانيين المغلوبين ارقى واعرق منهم في المدنية فلم يستنكفوا من مصاهرتهم والاختلاط بهم . وكذلك الكنعانيون المغلوبون لم يروا حطة باصهارهم الى اليهود وامتزاجهم بهم شان الامة المغلوبة مع الامة الغالبة. وعليه نقول ان شعوب سوريا كانوا مؤلفين من قبيلتين كبيرتين العبرانيين والاراميين . العبرانيون في الجنوب والاراميون في الشمال وهما شعبتان من الارومة السامية وينضم الى هولاء قبيلة صغيرة اعني الفينيقيين سكان السواحل وهم من الارومة الحامية

واما البلدان المحيطة بسوريا فاذا نظرتم ايها السادة الى الخارطة رأيتم العربية وشواطىء

الفرات تحيط بها جنوباً وشرقاً واسيا الصغرى والبحر المتوسط شمالاً وغرباً ولكن لما كانت جبال طورس تفصل سوريا عن اسيا الصغرى وتجعل المهاجرة من احدى البلادين الى الاخرى امراً صعباً ولما كان اهل اسيا الصغرى يخالفون السوريين في اللغة والاخلاق والعادات ويرون في بلادهم من الخصب وجودة الهواء فوق ما يرونه في سوريا كانت رحلاتهم اليها قليلة. ولم ينقل الينا التاريخ ان امة منهم هاجرت اليها وبخلاف ذلك ما هو مشهور عن العربية وشواطئ الفرات. فان اهل هاتين البلادين ما زالوا منذ ايام ابرهيم الخليل الى هذه الساعة يرحلون افراداً وجماعات الى سوريا وعليه فيهمنا تحقيقاً للجواب عن سؤالنا ان نعرف من هم شعوب العربية وشعوب ما بين النهرين وابناء من هم. ومعرفة ذلك ليست من الامور المشكلة لانه تحقق ان سكان هاتين البلادين اعني العربية وما بين النهرين هم من العبرانيين والاراميين وابناء عمهم القحطانيين وكلهم من الارومة السامية ومن قبيلة اخرى صغيرة كشوية وهي من الارومة الحامية

والمأخوذ من كل ذلك وهو ما اردتُ الوصول اليه ان سكان سوريا وسكان العربية وسكان ما بين النهرين جميعهم من ارومة واحدة سامية اختلط بهم من قبل زمن التاريخ شعبة من الحاميين امتزجت بهم وغابت جنسيتها في جنسيتهم حتى لم تعد تُميَّز بوجه من الوجوه. وجميع هؤلاء الشعوب والقبائل كانوا وما زالوا يتشابهون في اللغة والاخلاق والعوائد منذ الاف من السنين الى وقتنا الحاضر. وجميعهم ايضاً على ما عُلم من احوالهم سريعو الاجابة الى ما يوافق اميالهم ومشاربهم الفطرية متعاصون عما يخالفها ويصعب بل يستحيل ان يُنقلوا الى جنسية غير جنسيتهم ولغة غير لغتهم واخلاق غير اخلاقهم. ويكفيني ثبتاً لهذه الحقيقة ان اشير الى ما كان من امرهم مع دول الفرس واليونان والرومان اولاً ومع دولة العرب اخيراً فانهم تعاصوا على الدول الثلاث الاولى فلم يمتزجوا بهم ولا تجنسوا بجنسيتهم ولا تعلموا لغاتهم الا مكرهين. ومع ان الدولة الرومانية العظيمة المسماة بالدولة الحديدية حكمت في البلاد وجعلتها جزءاً من ممالكها نحواً من ٧٠٠ سنة فمع ذلك لما كان الفتح الاسلامي وانسحبت جنودهم وموظفوهم من البلاد كانوا كأن لم يكونوا فيها ولا حكموا اهلها بعصاً من حديد فامحت آثارهم من اللغة والعوائد والازياء والجنسية. لم يبقَ شيء من كل ذلك بخلاف امرهم مع دولة الاسلام فانه لم يمضِ على هولاء قرن واحد بعد ان افتتحوا سوريا حتى صارت البلاد عربية في لغتها واخلاقها وعوائدها ولا تزال كذلك الى هذه الساعة مع ان الدولة العربية انقرضت من البلاد منذ عدة مئات من السنين وما ذلك

الا لبعد الرومان وبُعد العرب من السوريين في اللغة والاخلاق والعوائد كما ذكرنا

﴿ السؤال الثاني ﴾

ولنتقدم الآن الى السؤال الثاني وهو ما سبب عظمة سوريا قديماً ؟

لعظمة بلاد ما اسباب منها ان يكون في البلاد دولة قاهرة تمد فتوحاتها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً كالدولة الرومانية مثلاً وهذا لم يكن لسوريا قط واعظم دولة قامت فيها دولة اليهود ايام دواد وسليمان . ولكن هذه الدولة لم تتجاوز سوريا بل لم تتبع الا الجزء الجنوبي منها مع بعض النفوذ في الجزء المتوسط واقل منه في الجزء الشمالي

ومنها ان تكون البلاد متسعة المساحة كثيرة عدد السكان كثيرة المياه والانهار وان تكون عشائرها متحدة معاً تضمهم دولة واحدة يجتمعون تحت لوائها لا يتخاذلون عن نصرتها ولا يتربصون بها الدوائر انما هم جميعهم على الاجنبي قلب واحد ويد واحدة . وهذا ايضاً لم يكن لسوريا قديماً فان مساحتها لا تزيد عن الخمسين الف ميل مربع وانهارها قليلة ليس منها ما يصلح للملاحة وامطارها قليلة ولا سيما في الجزء الجنوبي منها . واما اهلها فما زالوا عشائر متخاذلة لم تجتمع لهم كلمة ولا انضموا تحت لواء واحد وطالما كانوا يتربص بعضهم الدوائر بالبعض الآخر

ومنها ان تكون البلاد غنية بمعادن الذهب والفضة والحديد والنحاس وهذا لم يكن لسوريا ايضاً فانه لم يُعرف عنها الى اليوم ان كان فيها معادن ذهب في جبالها او مغاوص لؤلؤ في بحارها

ومنها اتساع التجارة واتقان الصناعة والزراعة . وليس شيء من اسباب العظمة محقق في عظمة سوريا الا هذا السبب . فان اهلها سكان البدو وسكان المدن كلهم كانوا اما تجاراً او متلبسون باسباب التجارة وقد اجمع المؤرخون على ان تجارة الفينيقيين ايام عظمة سوريا بلغت من الاتساع والانتشار مبلغاً قصرت عنه الامم القديمة عن آخرها ولم يكن له مثيل على ما يقولون الا اتساع تجارة الانجليز في الوقت الحاضر . وكذلك اجمع هولاء ان الصناعة والزراعة كانتا في سوريا على ارقاها ايام كانت التجارة ايضاً على ارقاها وانحطتا بانحطاطها . ولما انحطت التجارة وانحط هاتان معها انحط عزُّ البلاد وعظمتها وهذا ما اريد ان اقيم البرهان عليه وهو موضوع بحث السؤال الثالث اي ماذا كان سبب انحطاط سوريا الى الآن

﴿ السؤال الثالث ﴾

كانت صيدون في ايام يشوع المدينة العظيمة والمتقدمة على جميع مدن فينيقية . ذلك

لانها كانت اوسعهن تجارة واكثرهن غنىً وارسخ في الصناعة قدماً . لكن ما بين القرن الخامس عشر والثالث قامت المعاهدة البلاسجية واخذت تتعقب الصيدونيين وتزيلهم عن مواقفهم التجارية في البحر المتوسط فتاخر من ثم غنى الصيدونيين وانحطت عظمتهم على نسبة ما ابتزت منهم هذه المعاهدة القوية من المراكز التجارية

ثم ما زالت تتأثرهم هذه المعاهدة الى ان جاءت شعبة منهم الى نفس فلسطين واستولت على السواحل من يافا الى غزة واخذت تسابق الصيدونيين في التجارة في نفس بلادهم ثم ادت هذه المنافسة في التجارة الى المنافسة في السياسة ايضاً فان الفلسطينيين لما اثروا وامتدت تجارتهم وكثرت صناعتهم طمعوا في الصيدونيين وتوثبوا على بلادهم المجاورة ينتزعون منها مكاناً بعد آخر ويلحقونه باملاكهم الى ان كانت سنة ١٢٠٠ ق م فحملوا على حين غفلة بمراكبهم على صيدا فاستفتحوها عنوة وخربوها وشتتوا اهلها في الافاق . الا ان صيدا عاد لها بعد ذلك شيء من عزها على نسبة ما عاد لها امتداد التجارة لكن سبقتها صور منذ نكبتها هذه وما زالت سابقة لها الى ان قُضي على المدينتين معاً

ولا يمكني ان آتي على تفاصيل ما طرأ على عظمة صور وكل بلاد فلسطين تبعاً لها ولكن اقول اجمالاً ان صور ما زالت في اوج عظمتها منذ ١٢٠٠ سنة قبل المسيح الى ايام سرجون الاشوري سنة ٧٢٥ وذلك لانها كانت كل تلك المدة لا يسابقها مسابق في التجارة والاقدام على الغربة وقطع البحار . وكانت صناعتها حينئذ بالغة اعظم مبلغ من الاحكام والاتقان فلما جاء سرجون حاصرها سنيناً ومع كل قوته لم يقوَ عليها . فصالحها على الجزية لكن ما زالت التجارة في يدها يرد اليها بها من فائض الغنى اضعاف ما كان ينز منها جزيةً للاشوريين فامكنها ذلك من ان تصانع دولتهم العظيمة وتحفظ استقلالها منهم ان يذهبوا به على حين سقطت اغلب ممالك سوريا وصارت ولايات اشورية . ثم جاء نبوخذ نصر الكلداني فحاصرها ثلاث عشرة سنة وافتتحها اخيراً عنوة فقتل ونهب واسر ما شاء . لكن لما كانت التجارة لا تزال بيدها عاد اليها الغنى فعاد اليها ما كان لها من العظمة الى ان جاء الاسكندر المكدوني ولاسباب حاصرها هذا الرجل واستفتحها بعد ثمانية اشهر فنكل في اهلها تنكيلاً لم يُرَ منه مثله . ولو اكتفى الاسكندر بما فعله بها من القتل والنهب والاستعباد لهان عليها الامر مع فظاعته لكنه بنى مدينة الاسكندرية قصداً لتزاحم صور في التجارة فكان ذلك اشد عليها بمرات مما نكبها به هذا المكدوني الظافر لان الاسكندرية قاسمتها بعد ذلك التجارة وذهبت بقسم عظيم منها . فمن ثم لم ترجع صور الى عزها بعد فتح الاسكندر

كما رجعت اليه بعد فتح نبوخذ نصر . لكن لما لم يكن في استطاعة الاسكندرية ان تحول كل موارد التجارة عن سواحل سوريا بقيت صور وغيرها من مدن الساحل بمكان من العظمة والاهمية كل ايام خلفاء الاسكندر وايام الرومانيين وايام الخلفاء من بعدهم في دمشق وبغداد الى ايام غزوات الصليبيين . كل ذلك لان مقتضى احوال العمران لتلك الازمنة وعلاقات الممالك والشعوب بعضها ببعض كانت تقضي ببقاء المدن السورية صور وغيرها محطاً لقسم كبير من تجارة المعمور حينئذٍ . لكن الغزوات الصليبية غيرت من علائق الامم فنشأ في اثنائها على شواطئ ايطاليا مدن تجارية قضت الاحوال الواقعة ان تتقوى تلك المدن شيئاً فشيئاً وتعظم تجارتها فلم تنقض تلك الغزوات الا وهذه المدن من اهم مراكز التجارة بين غربي اوروبا وغربي اسيا وابتزت من المدن السورية معظم ما ابقته لها الايام بعد بناء الاسكندرية من موارد التجارة . فخربت مدينة صور العظيمة وقارب غيرها الخراب وانحطت سوريا اجمالاً الى حالة لم تعرفها من قبل . ولو وقفت الحال عند الحد الذي اشرنا اليه من قيام المدن الايطالية التجارية لهان الامر على سوريا كما هان عليها قيام الاسكندرية من قبل لكن البرتغاليين اهتدوا الى طريق راس الرجاء الصالح فجعلوه طريقاً جديداً للتجارة بين اوروبا والشرق ثم لم يلبث ان اكتشفت اميركا ايضاً فتحولت وجهة التجارة راساً بين اوروبا وآسيا اليها وقامت المدن التجارية في اسبانيا وفرنسا وهولانده وانكلترا فكان ذلك الضربة القاضية على جميع مدن سوريا . لكن مع ذلك بقيت بعض القوافل تتردد في التارات بين سوريا والعراق فبقي بسبب ذلك في البلاد دماء من الحياة التجارية . فلما انفتحت ترعة السويس ذهبت بقية تلك الحياة

وليس اللوم على السوريين في شيء مما صاروا اليه من التراجع لانهم لا يستطيعون ان يعارضوا مجرى الايام ولا ان يغيروا من طبائع العمران والامر لله يفعل ما يشاء . فهذا كان ايها السادة سبب عظمة سوريا وهذا كان ايضاً سبب انحطاطها لا ما قد يقال من الاسباب فانها جميعها ثانوية ما عدا الاسباب التي ذكرناها فان المتأمل لا يرى بداً من التسليم بها

﴿ السؤال الرابع ﴾

بقي عليَّ السؤال الاخير وساختصر في جوابه ما استطعت وهو بماذا ترجع سوريا الى عزها القديم . ايها السادة . ينتظر ممن كان في صناعة مثل صناعتي وفي موقف كموقفي ان يسند اسباب عظمة سوريا في المستقبل الى العلم وانا لا انكر دخل العلم ولا اهميته في تقدم البلاد

على العموم لكن ما هذا قصدتُ لانه سبب عام تشترك فيه كل بلدان المسكونة على السواء. وهو اوضح من ان يحتاج الى تخصيصه بالذكر انما قصدت سببين عظيمين (اولهما) البيت العثماني الكريم (والثاني) الزراعة وما يلحق بها من تربية الحيوان والنبات وتسهيل جميع وسائط النقل والمواصلات . ولما كان هذان السببان من الاهمية بمكان رايت ان استعطفكم ببضع دقائق بعدُ ولو شق ذلك على حلمكم والكريم من صبر . ايها السادة . ان البيت العثماني وجد سوريا بل كل البلاد من البحر المتوسط غرباً الى اطراف ما بين النهرين شرقاً ومن البحر الاسود شمالاً الى البحر الهندي جنوباً في حالة ما بعدها حالة من التفرق وانقسام الكلمة . ووجدها ايضاً تكاد تكون خلواً من الصناعة ومن اهل الصناعة ايضاً فضلاً عن انحطاطها في الزراعة الى آخر ما يمكن لبلاد كبلاد ما بين النهرين ان تنحط اليه . وفوق كل ذلك وجدها وقد تحول عنها طريق التجارة فبلغت من جراء ذلك الى اقصى درجات الفقر والخمول بما جعل الهمم تتراجع والنفوس تتصاغر والايدي تنكمش حتى عن الجد في تحصيل اسباب المعاش . فجعل هذا البيت الكريم من همه اولاً ان يجمع شتاتها . ويضمها جميعاً تحت راية واحدة ولسلاطينه العظام من السعي المشكور في هذا السبيل ما يخلد لهم الذكر مدى الدهر . لكن قضى الله ان يكون اكبر الفخر لواسطة عقد هذا البيت الكريم جلالة مولانا عبد الحميد خان فانه اخرج الى حيز الوجود ما كانت اباؤه العظام تحوم حوله ولا تقع عليه اعني توحيد الكلمة وجعل هذه البلاد الواسعة الخصيبة الطيبة الماء والهواء مملكة واحدة عثمانية وشعباً واحداً عثمانياً . فلسنا بعدُ كما كنا في ايام الرومانيين مثلاً شعوباً وممالك متفرقة تحت راية واحدة قاهرة بل نحن اليوم شعب واحد ومملكة واحدة عثمانية شملها السلام من اقصاها الى اقصاها . هذا هو الركن الاول وهذا هو الركن الاساسي الذي وضعه جلالة عبد الحميد لتبنى عليه عظمة بلادنا في المستقبل . ولا يسعني لو نت ان ابين ما لجلالة مولانا السلطان من الفضل الباهر في وضع هذا الاساس العظيم المتين على ان التفاتة واحدة الى الخارطة تغني عن الكثير من الشرح والايضاح فلنتقدم الان الى السبب الثاني وهو الزراعة وتوابعها فاقول

﴿ الزراعة دون سواها ﴾

انتم تعلمون ايها السادة ان اركان التقدم الطبيعية الحقيقية بعد الركن الذي ذكرناه انما هي التجارة والصناعة والزراعة وقد رأينا ان على هذه الاركان الثلاثة واخصها الاول قامت عظمة سوريا في الماضي ولا شك ان عليها ايضاً تقوم عظمتها المستقبلة . لا طريق ولا

واسطة غير ما ذُكر. اما العلم ففائدته واهميته انما هي في ترقية هذه الاركان الثلاثة. وعليه فيهمنا ان نعرف باي هذه الاركان نبتدئ اليوم والى ايها ينبغي ان توجه رجال البلاد ومن يتوقف عليهم تقدم البلاد الهمة والاعتناء خاصة. أالى التجارة؟ وتعلمون ماذا يراد بالتجارة كلا ذلك زمن قد مضى الان ولا سبيل اليه في الوقت الحاضر. افتستطيعون ان تقلبوا هيئة العمران الحاضر. اتستطيعون ان تمحوا من الوجود اميركا الشمالية والجنوبية وافريقيا واستراليا وبقية جزر المحيط؟ اتستطيعون ان تخفوا عن اعين اهالي اوروبا طريق راس الرجاء الصالح وتردمون ترعة السويس؟ ان استطعتم كل ذلك فابدءوا بالتجارة ووجهوا اليها عنايتكم الخاصة. بماذا تبدؤون اذن؟ لعلكم تقولون نبدأ بالصناعة لكن اي صناعة تعنون اصناعتكم ام الصناعة الاوروبية القائمة بها تجارتهم؟ لا شك انكم تعنون الصناعة الاوروبية لكن فاتكم ان الصناعة الاوروبية تحتاج الى مثل التجارة الاوروبية لتقوم بها والا فتسقط لا محالة. وقد رأينا قبيل الان ان ابواب هذه التجارة موصدة في وجوهنا ومن المحال علينا فتحها الان فدعونا اذن من التعللات والتشبيهات والاحلام التي لا تجدينا نفعاً وتعالوا بنا الى الحقيقة الراهنة. تعالوا بنا الى الزراعة فليس سواها من وسائط النجاح امامنا الان. ولا تحلموا بالشركات التجارية والصناعية وتبنون عليها عظمتكم ونجاحكم في المستقبل فان جميع هذه اضغاث احلام تعلمون بطلانها ولو بعد حين. اذا اردتم الحقيقة فوجهوا عنايتكم الخاصة الى الزراعة. واعقدوا الشركات لها خاصة دون سواها. اعقدوا شركات لشراء الاراضي واستعمارها. اعقدوا شركات للغرس وتربية الحيوان. اعقدوا شركات لانشاء الطرق بجميع انواعها تسهيلاً لاسباب المواصلات. لكن قبل كل ذلك تعلموا كلما يتعلق بما تعقدون لاجله الشركات فلا تقدموا عليه من غير علم ولا سابق اختبار فان ذلك يقضي بالخيبة والفشل. فياشبان البلاد المتعلمين والمتهذبين ويا اصحاب الهمة والعزيمة الراغبين في ان يبنوا لهم ولبلادهم مستقبلاً مجيداً وجهوا خواطركم الى استعمار اراضي بلادكم الواسعة الخصيبة فانكم لستم افضل من ابناء الانكليز ولا تجارتكم كتجارتهم ولا صناعتكم كصناعتهم ومع ذلك فان مئات من نخبة شبانهم وابناء الاغنياء والمتوسطين منهم يدرسون سنوياً في المدارس الزراعية فيتعلمون كيف يفلحون ويزرعون وكيف يربون الحيوان ويغرسون الاشجار المثمرة والمغروسات النافعة ويتعلمون كيف يصلحون الالات الزراعية وكيف يخططون الطرق العادية والحديدية ثم يرحلون في طلب الاستعمار الى اراضٍ تاكل اهلها الى افريقيا واستراليا وجزائر المحيط. فتعلموا مثلهم وانتم في غنى عن شبه مهاجرتهم الشاقة لان بلادكم

جنة الله في ارضه ومن الجهل ان تتركوا استغلالها الى التعلل بالامال الفارغة والصناعات الخاسرة والاستخدامات الكاسدة فضلاً عن ان هذه الصناعات وتلك الاستخدامات سيسد بابها عما قليل فتعنون انفسكم باطلاً وتقتلون اوقاتكم بالتشهيات والتشكيات . انا اعلم ان كلامي لا يصادف الان اذاناً سامعة لكن غاية ما في وسعي ان انبه الى الخير ولا تكلف نفس الا وسعها

خريسطوفوروس جباره

لبعض الناس القصيري النظر والقاصري الحكم خصلةٌ مستهجنة وهي انهم ينظرون في كل شؤونهم الى من يقول القول لا الى القول نفسه . فاذا راموا الحكم على رأي من الآراء لزمهم ان يسالوا عمن رآه ومن قاله فاذا كان القائل يظهر كبيراً في مخيلتهم « الذبابية » اعظموا القول وقائله واذا كان يظهر غير كبير صغروا القول وقائله . فشانهم في ذلك شان من لا باصرة له تحكم وتعقل وانما يبني حكمه على حكم سواه

وهذا الداء كثير الانتشار في الصحف العربية الشرقية وذلك من سوء حظ الادب العربي والنهضة الادبية الشرقية لانه بمثابة عثرة في طريقها . ولكن لهذا الداء دواء وهو رجوع كل كاتب الى نفسه والى عقله في الحكم على الاشياء والاشخاص التي تمرُّ تحت نظره ووضعها في الموضع الذي تجعلها فيه باصرته دون محاباة ولا مراعاة عملاً بناموس الانصاف وان كان في ذلك ما ينافي هواه او مصلحته .

ومن اجل هذا نرى واجباً ان نقطع في هذا الفصل حبل السكوت عن رجل توفي في الشهر الماضي واكثر القراء يعرفونه او سمعوا باسمه . وهذا الرجل هو المرحوم خريسطوفورس جباره الذي اخذ على نفسه في حياته مسألة توحيد الاديان اليهودية والمسيحية والاسلاميه او اظهار « الوفاق بين التوراة والانجيل والقرآن » كما كان يقول . فانه لا يحسن ان ينتقل من هذا العالم رجل اقدم على عمل هائل كذلك العمل دون ان يودِّع بفصل يُظهر للقراء حقيقة ذلك الرجل الذي كان يحسب انه يعمل عملاً عظيماً لم يسبقه اليه احد من المتقدمين والمتأخرين

وكان بدء معرفتنا به ارساله الينا في عام ١٨٩٩ مؤلفاته مشفوعة بكتاب طويل قال فيه « بما انكم تحبون وتخدمون الامة باحسن ما تستطيعون وضمُّ قلوب الامة المتفرقة في الله

واتحاد ارواح عقائدها هو على اعتقادي من اقوى وانفع واثبت واعم الخدم للشعوب العثمانية وللدولة فاقدم اليكم آخر مؤلفاتي في هذا الباب راجياً مطالعتها » وقد تصفحنا هذه المؤلفات وهي تزيد على الخمسة والستة فراينا انه قد صرف جهده فيها الى اقامة البرهان على خطاء المسيحيين والمسلمين واليهود في ما يعتقدونه في هذا الزمان . خطأ المسيحيين لانهم يعتقدون بلاهوت المسيح والمسلمين لانهم لا يعتقدون بصحة الانجيل واليهود لانهم ينكرون مجيء المسيح . وحاول ان يثبت من كتب هذه الطوائف الثلاث ان اديانهم وكتبهم متفقة لا خلاف فيها البتة فلا موجب لهذا العدوان بين بعضهم البعض

وقد قدم من العاصمة الى الثغر بعد ارساله مؤلفاته الينا ببضعة اسابيع فزارنا للمرة الاولى فوجدناه ربعة الجسم عريض العضلات قصير القامة بلحية طويلة يخالطها الشيب ووجه دموي فوقه طربوش وتحته قفطان اسود بسيط . فتاملنا في وجه هذا الرجل الذي كان يضع نفسه فوق الامم المعاصرة ليعلمها ما كان يسميه الدين الحقيقي فلم نجد في عينيه تلك القوة التي تكون في عيون قادة الامم ولا في نفسه تلك الحماسة التي تسري من الانبياء الى شعوبهم كما تسري الكهربائية من جسم الى جسم فتكهربه . بل راينا امامنا نظراً جامداً لا يدل على نباهة ولا خمول وجسماً فيه المادة اقوى من الروح . غير اننا وجدنا في مقابلة ذلك لساناً طلقاً لا يكلّ ولا يملّ كانه مركب فوق لولب

فاخذ خريسطوفوروس يحكي لنا تاريخه . فقال انه كان من قبل ارشمندريتاً في « انطوش » ارثوذكسي في روسيا فسعى سعياً حثيثاً لتعمير هذا الانطوش وبناء كنيسة هناك فتمكن من ذلك وصار محترماً محبوباً . فخطر له في ذات يوم ان يكتب الى بعض اخوانه من رجال الدين في سوريا ان يسعوا لجعل البطريرك اليوناني في دمشق من ابناء العرب السوريين . فوقع هذا الكتاب في يد البطريرك اليوناني فعزله من رئاسة الانطوش واستقدمه الى دمشق . وكان خريسطوفوروس قد انفق على الانطوش نفقات طائلة بعضها من ماله وبعضها مما جمعه من المحسنين فلما قدم الى دمشق الشام طالب غبطة البطريرك بالدين الذي له على الانطوش فلم يعرفه له بل ابقاه في دار البطريركية ذليلا مهملاً . قال فانقطعتُ اذ ذاك الى التامل في الاديان الحاضرة ومطالعة القرآن والانجيل والتوراة . وكنت في اثناء حياتي الماضية اشعر بقلق واضطراب في ضميري . وما زلتُ على هذه المطالعة حتى وقفت على الحقيقة وظهر لي السرّ العظيم ... فشعرت حينئذٍ بان ناراً تضطرم في نفسي وبان صدري مخبأ للحقيقة العظمى التي اكتشفتها والتي كنت اخشى ان

اموت ولا ادعو الناس اليها . فسافرت الى اميركا وعرضت مبدأي في مؤتمر الاديان فاجمع الاعضاء على استحسانه ... ثم جئت الى مصر وانشأت جريدة واخذت ادعو فيها الى الحق والفت كتباً ايضاً .

فقلنا له وماذا كان رأي الناس فيك . فضحك وقال كان رايهم فيَّ كما كان رايهم في كل من يقوم ويدعوهم الى امر جديد . ولكن مساكين هؤلاء الناس فانهم كلهم في ضلال مبين ...

فشرحنا لخريسطوفوروس حينئذٍ خشونة المركب الذي ركبه ونحن نظن ان المنطق يجد سبيلاً الى عقله . فقلنا له ان الاديان كلها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتقضي بحب القريب واتباع الفضائل ونبذ الانانية فهل رايتَ كثيرين من تباعها يعملون بذلك ويتبعونه . فالداء ذاً ليس في الكتب ولا الاديان وانما الداء في نفوس الناس . ولا سبيل الى تغيير هذه النفوس لتعامل بعضها بعضاً كبشر لا كحيوانات الا متى انقشعت غيوم الجهل عنها وارتقت واستنارت . وهذا الامر لا يتم باقامة البرهان على خطاء اصحاب الاديان ولكن باطلاع الناس على نواميس الطبيعة واسرار الكون ومبادئ الحياة واصول الاداب والفضائل فان هذه المبادئ متى دخلت نفس الانسان جعلتها قوية على الاوهام هادئة لدى كل معارك الحياة ونبذت منها كل ما يحول دون الالفة بين البشر . فانشاء مملكة الله في الارض عمل علمي ادبي اكثر مما هو لاهوتي . وذلك العمل بطيء الحصول ولا يتمُّ الا بالتدريج الذي هو قاعدة من قواعد العلم والطبيعة . ثم انك هل رايت المسيحيين متفقين فيما بينهم لتجوز لك الدعوة الى اتفاق الامم الاسلامية والمسيحية واليهودية معاً .

فاجاب ان البشر من ام واحدة وجبلة واحدة فحرام عليهم ان يبقوا مبغضين بعضهم بعضاً . فقلنا له انك اجبتَ عن الاعتراض الاخير ولم تجب عن الاعتراض الاول . فقال ان الاعتراض الاول بحث علمي ونحن لا نبحث الآن في العلم

فعلمنا حينئذٍ ان العقل الذي كان امامنا عقل منصرف الى المجادلات الدينية العقيمة لا يفهم القاعدة العلمية ولا يعرف تاثيرها ولا يُدرك انه لا يمكن حدوث شيء في هذا العالم بدونها . وتحققنا حينئذٍ ان المرحوم خريسطوفوروس يسير على غير هدى ولا نظام في جميع اقواله واعماله كانَّ الموازنة غير مستوية في نفسه رحمه الله

ثم غاب عنا خريسطوفوروس بضعة اسابيع وعاد الينا فسالناه اين كنت في هذه المدة قال سافرتُ الى دمشق الشام لتهنئة غبطة البطريرك الانطاكي العربي بجلوسه في كرسي

البطريركية لانني كنت في مقدمة الداعين الى اخراج هذا الكرسي من ايدي اليونان الى ايدي العرب . فعجبنا لهذه السفرة بعد ما كنا قد سمعناه من فمه من التحامل الخفيف على بعض رجال الاكليروس وسالناه ماذا حدث لك في دمشق وكيف استقبلت فيها . فقص علينا قصة طويلة خلاصتها ان بعضهم زين له الرجوع الى كنيسته فاظهر لهم الطاعة والرضوخ لان السلطة التي كان يقاومها قد زالت وله حقوق قديمة في انطوش روسيا يروم المطالبة بها . ولكن وقع الاختلاف بينه وبينهم على امر التوبة . فانهم كانوا يطلبون منه بناء على القانون كتاباً يظهر فيه توبته ونبذه لكل الاقوال التي قالها والكتابات التي كتبها ورجوعه الى الحظيره برضائه واختياره وبعد ذلك يسمحون له بالاقامة في احد الاديرة ويحسنون معاملته ويعوضون خسارته . وهو كان يقول لهم انه لا يستطيع مخالفة اعتقاده ونبذ المذهب الذي دعا اليه وانما يرضى بالاقامة في دير والخلوة فيه الى نفسه وضميره ليرى اذا كان الله يغير ما بنفسه او يبقيه على اعتقاده

فلما قال هذا القول حدقنا جيداً في عينيه لنقرأ فيهما جواباً لسؤال قام حينئذٍ في نفسنا . وهو هذا : اتمخلص هذا الرجل في كلامه ؟ احقيقٌ انه يوجد الآن تحت سماء الشرق رجل يعرضون عليه رئاسة ومكافأة ليغير فكره ولا يغيره ؟ وقد قام في نفسنا هذا السؤال (وليس في قيامه شرف لمبادئ الادبية في الشرق) لما هو مشهود من « رخص» الافكار عندنا واأسفاه وسرعة تغيرها في نفس كل ذي فكر طبقاً لمصلحته وهواه

على ان الامر الذي استنتجناه من هذه المحادثة الثانية مع المرحوم خريسطوفورس هو الاسف من ان الرجل لم يرجع من مقام البطريركية راضياً راضخاً . وقد قلنا غير مرة في نفسنا انه لو تمّ ذلك لكان لغبطة البطريرك العربي فضل عظيم في اصلاح ما افسده البطريرك اليوناني لاننا نعتقد ان التبعة في شذوذ خريسطوفورس واقع نصفها ان لم يكن كلها على السلطة الدينية التي احرجته في بدء امره فاخرجته عن دائرة العقل والنعقل . ولا عبرة بانه كان ذا استعداد لذلك فان مسبب الشر كفاعله . وقد قيل الويل لمن تأتي العثرات على يده

ولكن يظهر ان هذا الشرّ الذي جاء على يد بطريرك يوناني لم يُكتب اصلاحه الا لبطريرك يوناني . ونعني به غبطة الحبر الجليل السيد فوتيوس بطريرك كرسي الاسكندرية فانّ غبطته حين وفاة المرحوم خريسطوفوروس في العاصمة في الشهر الماضي لم يتردد في قبوله في دائرة سلطته واعتباره كرجل من ابناء رعيته وهذا مما دل على حكمة غبطته

آثار من قبل الطوفان

هل كان الطوفان عاماً على وجه الارض . مسألة اختلف فيها العلماء وان اتفق عليها اللاهوتيون . ولهم في انكار ذلك التعميم ادلة علمية وتاريخية وانثربولوجية لا محل لذكرها في هذا المقام . بل ان بعضاً منهم يذهبون الى انكار الطوفان نفسه ويعتبرونه من جملة الاقاصيص والاساطير الخرافية القديمة . قال احد هؤلاء المنكرين . ان الارض اقدم مما يظنه القائلون بالطوفان والعمران فيها قديم العهد جداً ايضاً وهو ادوار يتلو بعضها بعضاً على وجه غير متصل . وقد كانت اسطورة الطوفان بعد واحد من تلك الادوار . فانه كان في العالم قبل تمدن الاشوريين والكلدانيين والمصريين والصينيين والرومان واليونان تمدن عظيم لا يعرف التاريخ شيئاً عنه وعن اهله . وقد بلغ الناس في عهده فوق ما بلغوه في هذا الزمان من الحضارة والخلاعة والزحام على الحياة والتانق وحب صلاح الحال . وكانوا كلما ازدادوا انبعاثاً في هذه الشؤون ازدادت اخلاقهم بعداً عن الصلاح وقرباً من الفساد . ثم دالت دولة ذلك التمدن فانقرض وزال فقال مؤرخوه ان الله اهلك اولئك البشر بطوفان عظيم عقاباً لهم على فسادهم وشرورهم

ومن اجل هذا تجد كثيرين من العلماء المادبين الذين لا يثقون بتقدم العالم واستمرار الارتقاء البشري يتساءلون هل تُقضي على البشر بما قضي على طائفة النمل . فان هذه الحيوانات الصغيرة تصل في حياتها الى درجة من (التمدن) محدودة فمتى بلغتها وقفت عندها ولم تتجاوزها . فهل ان الخالق سبحانه وتعالى وضع حداً لتمدن الانسان كما وضع حداً (لتمدن) الحيوان

على اننا اذا كنا لا نعرف شيئاً عن تمدن البشر واخلاقهم قبل العصر الطوفاني فاننا نعرف شيئاً كثيراً عن الحيوانات التي كانت رفيقة للانسان في ذلك الزمان . وانما نعرف ذلك من بقاياها في جوف الارض وهذه البقايا لا يزال العلماء يكتشفونها الى هذه الايام

وآخر ما عثروا عليه منها وجدوه في ارض واسعة في « بيكرمي » على مسافة عشرين كيلومتراً من آثينا . وقد حملت احدى السفن الانكليزية من ثغر بيره اليوناني في اواخر الشهر الماضي اربعين صندوقاً مملوءة ببقايا الحيوانات التي عاشت قبل الطوفان لوضعها في المتحف الانكليزي في لندن

وقبل الكلام على ارض بيكري التي تستخرج تلك البقايا الحيوانية القديمة منها نشير الى كيفية ترتيب البقايا في الارض . فنقول ان في جوف الارض خمس طبقات مختلفة وكل طبقة منها تدل على ان حادثاً طبيعياً عظيماً قد حدث على سطح الارض فغطاها بشيء لم يكن لها ودفن تحت هذا الشيء الحيوانات التي كانت على وجهها . ومن الغريب ان النابشين لا يجدون تحت القشرة الاولى او الطبقة الاولى الا حيوانات صغيرة غير تامة الخلقة فكأن الارض كانت يومئذ في بدء نشأتها . ولكن قد يكون في هذه القشرة اشجار محجرة هائلة الحجم . واما الطبقة الثانية ففيها كثير من انواع الاسماك والزحافات الكبيرة ولكن لا اثر فيها لذوات الثدي . واما الطبقة الثالثة ففيها ذوات الثدي كالفيل العظيم ووحيد القرن وغيرهما من الحيوانات المجترة والقارضة والطيور . واما الطبقة الرابعة ففيها الحيوانات العائشة في هذا العصر . وقد تمكن العالم كوفيه من ترتيب هذه الحيوانات بحسب نشأتها وقدميتها

اما ارض بيكري التي تقدم ذكرها فقد كانت من قبل لدير يوناني على سفح جبل بانتليكوس في طريق ماراتون . وُصل اكتشاف تلك الآثار الحيوانية فيها ان جندياً بافاريا كان يصطاد في تلك الارض في عام ١٨٣٨ فوجد فيها حفرة فيها كثير من بقايا الحيوان فحملها الى اثينا وعرضها على علمائها فتحققوا انها من الحيوانات القديمة . فجاء بعده الاستاذ روس من اساتذة كلية مونيخ وحفر في تلك الارض فوجد فيها كثيراً من الحيوانات التي عاشت قبل الطوفان فعاد بهذه الغنيمة الى متحف مونيخ . فثار حينئذ ثائر علماء اوروبا واقبلوا على الحفر في تلك الارض . فوجد فيها المسيو كودري الفرنسوي في عام ١٨٦١ كثيراً من البقايا الحيوانية منها حيوان سماه « فارة بيكري » وفرس من الافراس التي كانت تعيش قبل الطوفان وهو يختلف عن افراس اليوم من حيث شكل حافره . وفي عام ١٨٨٢ حفر فيها الاستاذ درنر الالماني وفي عام ١٨٨٥ حفر فيها الاستاذ نومايير النمساوي . وفي الاعوام الاخيرة حفر فيها المستر ارتور وود ناظر المتحف الانكليزي في لندن فوجد من البقايا الحيوانية ما ملأ به الاربعين صندوقاً التي تقدم ذكرها وفي جملتها كثير من رؤوس الخنازير الوحشية التي كانت تعيش قبل الطوفان واسنانها لا تزال مركبة في افكاكها واسنان الفيلة العظيمة التي كانت تعيش في ذلك العصر البعيد وفي جملتها سن طولها متر واحد وهو اطول سن عُرف للفيل الى هذه الايام . وقد كان اكتشاف النابش الانكليزي اهم من جميع الاكتشافات التي تقدمته

على ان الحفر في هذه الارض لم ينقطع الى اليوم. فان عالماً ايطالياً يطلب الآن من صاحبها المسيو سكوتس الذي كان وزيراً للشؤون الخارجية اليونانية في وزارة المسيو دلياني ان يسمح له بالحفر والحكومة الايطالية تعضده . ولا ريب ان المسيو سكوتس يجيبه الى ذلك كما اجاب الذين تقدموه

وقد استدل الباحثون من هذه الآثار على امر ذي بال . فانهم تحققوا ان البقايا الحيوانية المذكورة لا تشبه البقايا الحيوانية التي وجدت في ارض اوربا ولكنها تشبه كل الشبه البقايا التي وجدت في جزائر اليونان وفي ارض آسيا . ولذلك قالوا ان ارض اليونان كانت في الزمان القديم متصلة بآسيا ومنفصلة بالبحر عن اوربا خلافاً لما هي فيه في هذه الايام من انفصالها بالبحر عن آسيا واتصالها باوروبا

طريقة صيد الثعلب

للصيد شأن عظيم عند الناس فبعضهم يتخذه للارتزاق والتجارة وبعضهم للهو والتسلية . وهو انواع بعضه بالرصاص وبعضه بالكلاب . والحيوانات المصيدة انواع ايضاً اهمها شاة الجبل والخنزير والارنب والثعلب والذئب والاسد والفيل والطيور بعضها للانتفاع بلحمها وبعضها للانتفاع بريشها وجلودها . ومن النوع الثاني صيد الثعلب الذي كان له في انكلترا والقطر المصري في الشهر الماضي طنين ورنين بناء على ما قام من الخلاف بين بعض من ضباط الجيش الانكليزي في العاصمة وخفراء منزل المستر بلنت الايرلندي في المطرية . فان بضعة من الضباط خرجوا في ذات يوم لصيد الثعلب ومعهم كلاب استقدموها من انكلترا لهذا الغرض فلما وصلت الكلاب الى حديقة المستر بلنت في المطرية دخلت الحديقة لتطارد ثعلباً شاهدته فيها فلحقها الضباط . فخرج اليهم حينئذٍ خفراء الحديقة وحدث بين الفريقين نزاع شديد ادى الى ضرب واهانة . فحكم الخفراء وحكم عليهم بالسجن فاكبر المستر بلنت صرامة الحكم وكتب الى الجرائد الانكليزية بذلك وسأل اصدقاؤه في مجلس العموم الانكليزي الوزارة عما صنعه الضباط من دخولهم الى حديقته للصيد فيها . ولم تكن كل تلك الجلبة والضوضاء الا من اجل ثعلب

ولصيد الثعلب شأن عظيم في انكلترا وهو من اشهر ضروب الصيد هناك ويقصدون

بصيده امرين الاول ترويض الكلاب على الجرأة والعدو السريع والثاني الانتفاع بجلد هذا الحيوان . واما طريقة صيده فهذا بيانها.

يعدون لهذا الصيد كلاباً سريعة قادرة على اللحاق بالثعالب وخير الكلاب لذلك الكلاب الانكليزية . ومن مزايا هذه الكلاب انها تشم رائحة الثعلب من بعيد جداً فتحوم حوله قبل ان تراه حتى تكتشف مكانه . وذلك لان للثعلب رائحة مخصوصة به تعرفها تلك الكلاب. اما الثعلب فمتى رأى الكلاب اطلق ساقيه للريح فتجدّ الكلاب في طلبه كانها نبال خرجت من القوس لشدة سرعتها وارتياحها الى الركض في الطريق التي يركض الثعلب فيها . ولكنّ الثعلب لا يلبث بعد مدة ان يرى الكلاب قد صارت قريبة منه فيقال انه يتخلص منها حينئذ باسلوب بسيط جداً وهو ان يقف ويقضي حاجته فما يخرج البراز من جوفه وتنتشر رائحته حتى تعود الكلاب عنه لخبث رائحته وكراهة الكلاب اياها اشد كراهة . ولكن الويل له اذا وقف ولم يستطع قضاء حاجته فانه يؤخذ حينئذ غنيمة باردة . واحياناً يستطيع الفرار بعد هذا الوقوف والالتجاء الى وكره فيدخل فيه ويبرز راسه مدافعاً به اشد دفاع فلا يكون للكلاب سبيل اليه . واحياناً يرمي بنفسه في الماء ويخرج راسه على شاطىء النهر مدافعاً به فتعجز الكلاب عن اخذه حتى يدركه التعب والعياء. ولكن اذا ادركته الكلاب قبل ذلك فانها تحيط به من كل جانب وتهجم عليه فتخنقه . فياخذه الصياد حينئذ ويعلقه في غصن احدى الاشجار فتحوم تحته الكلاب التي صادته نابحة واثبة اليه حتى تصل اليها الكلاب التي تاخرت عنها فان رؤية الطريدة جثة جامدة امامها مما يجعلها جريئة قوية في صيد ثانٍ . على ان الصياد لا يدع الثعلب معلقاً امام الكلاب وقتاً طويلاً لئلا تالف رائحته كثيراً فلا تعود شديدة الشعور بها عند الصيد . والصياد كلما متى صاح بها في اثناء الصيد وثبت الكلاب وثباً شديداً الى المكان الذي يشير اليه الصياد باصبعه لانها علامة على وجود الثعلب . وهذه الكلمة هي « تايوت . تايوت » فكانّ « تايوت » في قاموس الكلاب كلمة مرادفة للثعلب

عرابي باشا ومنفاه

آراء الناس في عرابي · خلاصة ترجمته · تاريخ جزيرة سيلان منفاه

﴿ آراء الناس في عرابي ﴾ لعرابي باشا المنفي في جزيرة سيلان والذي سيعود في هذا الشهر الى القطر المصري صورتان ادبيتان متباينتان واحدة يرسمها اصدقاؤه وواحدة يرسمها اعداؤه

اما الصورة الاولى التي يرسمها اصدقاؤه فهذه خطوطها الكبرى — كان الفلاح المصري قبل قيام عرابي باشا في اسوأ حال والوظائف الكبرى كلها في ايدي الغرباء والرشوة القاعدة الاولى في الاحكام وكان جميع المصريين يحنون رؤوسهم تحت نير ذلك الحكم الجائر والاستبداد الذي لا مثيل له ولم يجسر احد منهم على رفع رأسه ومطالبة الهيئة الحاكمة بحقوق الهيئة المحكومة غير عرابي · فعرابي اذاً بطل من الابطال ككرومويل صاحب الاصلاح الانكليزي ولافايت صاحب الاصلاح الفرنسوي وكوشوت صاحب الاصلاح النمساوي وواشنطون صاحب الاصلاح الاميركي · وقد كان قيامه حداً فاصلاً بين عالم الاستبداد الماضي وعالم العدل التالي

وهؤلاء الاصدقاء الذين يرسمون لعرابي هذه الصورة اكثرهم من رجال الانكليز وفي مقدمتهم محاميه الذي دافع عنه يوم محاكمته · واما الصورة الثانية التي يرسمها خصوم عرابي فهذه خطوطها الكبرى

يقولون · ان عرابي رجل جاهل حسود طماع · اما جهله فلانه حسب انه يكفي ان يثور الشعب المصري فينال الاصلاح المطلوب · فكانه نسي مصالح اوروبا في مصر وعلائقها بالباب العالي · واما حسده فلانه راى الجراكسة في الوظائف الكبرى فرام التعالي عليهم · واما طمعه فلانه كان يتطاول الى العرش الخديوي ليعيد في مصر حادثة محمد علي · وقد ادت سياسته هذه الى ثلاث مضار كبرى · الاولى قتل استقلال بلاده · والثانية الباس الجيش المصري لباس العار في وقعة التل الكبير التي فرّ فيها عرابي فرار الجبان بعد ما كان لهذا الجيش من الامجاد العسكرية في بلاد السودان وغيرها · والثالثة اخراج منافع البلاد ومرافقها من ايدي ابنائها الى ايدي الاجانب بازدياد العنصر الاجنبي فيها بعد الاحتلال · فعرابي

﴿ عرابي باشا ﴾

كان اذًا آفة لوطنه وخائنًا لمليكه . وكانّ ناظم الابيات التالية قد ترجم عن عواطف هذا الفريق لما قال هذه القصيدة الرشيقة التي تنمّ على ناظمها كما ينم العطر على العطار ومطلعها

صغارٌ في الذهاب وفي الاياب ... اهذا كل شانك يا عرابي
عفا عنك الاباعد والاداني ... فمن يعفو عن الوطن المصاب
فعش في مصر موفور المعالي ... رفيع الذكر مقتبل الشباب
افرق بين سيلان ومصر ... وفي كلتيهما حُمر الثياب

ولكننا نرى انّ بين هذين الطرفين وَسطًا للعاقل البصير . والتاريخ العادل المنزه عن الهوى اذا رام ترجمة عرابي لم يحسب له سيئةً قيامه الى طلب الاصلاح في زمن كانت فيه الحقوق مهضومة والظلم فاشيًا فان ذلك نظام طبيعيٌّ اذا لم يظهر على يد عرابي ظهر على يد سواه وهو من نتائج الاختلال وسوء الحال . ولكن السيئة الكبرى التي يدونهـا له تاريخ مصر و يعتبرها خروجًا عن جادة السياسة لصحيحة والنظام الطبيعي الذي لا يتمّ شيءٌ بدونه هي قيامه على السلطة الخديوية واعتبار الخديوي امير البلاد وصاحبها عدوًا له ولما فضلاً عن اثارته الضغائن الجنسية في النفوس اثارة افضت الى مذبحة الاسكندرية المشهورة . فلو كان عرابي اوفر علمًا باسرار السياسة الدولية واكثر اطلاعًا على حوادث عصره ومجرى

زمانه ولو كانت نفسه مستعدة استعداداً حقيقياً لتكون زعيمة حزب عظيم وفيها ما يجب ان يكون فيها من السلطة لكبح جماح العامة حين جموحها كما كان فيها من المقدرة على اثارتها لرأى ما كان امامه من الصخور الهائلة . وهنا موضع الخلاف بين عرابي وخصومه فانه ما فتىء ينادي من جزيرة سيلان في كتب خصوصية وغير خصوصية انني لم اصنع ما صنعتُ الا خدمة لوطني واعلاءً لشأنه . فيردُّ عليه اولئك بقولهم ان قيامك على سيد البلاد قياماً اضطر دولة اجنبية للدفاع عن سلطته قد اضاع البلاد ومن فيها فاذا كانت نيتك حسنة فان سياستك كانت من افجع السياسات

﴿ خلاصة ترجمته ﴾ ولا بدَّ في هذا الفصل من الالمام بشيء من ترجمة عرابي تتمة للفائدة . فنقول انه احمد عرابي الحسيني ولد في عام ١٨٣٩ ولما بلغ السنة الرابعة عشرة دخل المدرسة العسكرية وخرج منها في ايام المرحوم سعيد باشا فانتظم في سلك الجيش ولكنه لم يلبث ان طُرد منه على ما يقال لسوء سلوكه بعد جلده عقاباً له ولعل ذلك لشدة عناده في شبابه . وبعد ذلك دخل الى الجامع الازهر لطلب العلم وتزوج بجارية لاحد الباشوات ثم عاد الى الانتظام في سلك الجيش في ايام المرحوم اسماعيل باشا وشهد القتال بين مصر والحبشة برتبة قائمقام دون ان يمتاز بشيء في تلك المعركة . ولما عاد من السودان اخذ يسعى في تاليف جمعيات سرية لمقاومة الجراكسة الذين كانوا اصحاب الكلمة في الجيش فالقي عليه القبض في عام ١٨٨١ ولكن انصاره هجموا على السجن فكسروا ابوابه واطلقوه . فكبر الامر على وكيل انكلترا ورام خنق هذا المبداء قبل استفحاله فامتنع وكيل فرنسا من الاشتراك معه في ذلك في بدء الامر ظناً منه ان عرابي ورفاقه مخلصون في دعوتهم ومطالبهم (نقلاً عن المسيو بوردو) وبعد ذلك عظم الامر فوردت على حكومة مصر مذكرة من الدول تقضي بمنعها من انشاء مجلس نيابي فيها كما كان يطلب عرابي فلم يمتثل عرابي وكان قد مُنح رتبة باشا فانتخبه المجلس النيابي المذكور ناظراً للحربية بالرغم عن طلب انكلترا وفرنسا نفيه من القطر المصري . فعظم نفوذ عرابي يومئذٍ واخذ يقاوم السلطة الخديوية لانها كانت لا تجاريه على مراده فارسلت الدولة العلية في ٨ يونيو من عام ١٨٨٢ درويش باشا للتحقيق في المشكلة المصرية ثم اشتد الخلاف بين المرحوم توفيق باشا وعرابي فاعلن عرابي انزال الخديوي عن كرسيه فهال اوربا الامر ثم كانت مذبحة الاسكندرية في ١١ يونيو فضرب الاميرال السر بوشان سيمور قائد الاسطول الانكليزي الاسكندرية واحتلها تأييداً للسلطة الخديوية فلجأ عرابي بجنوده الى التل الكبير فسارت اليه الجنود الانكليزيه ففرَّ من

وجهها عرابي وجنوده من غير حرب ولا قتال وهذا مما اسخط الناشئة المصرية اسخاطاً شديداً عليه وجعل احدها وهو الشاعر الذي تقدم ذكره يقول في تلك القصيدة

واذ ضربوا وسيفك لم يجرد ... واذ دخلوا ونعلك في الركاب
واذ مُلئت لك الدنيا نفاقاً ... وضاقت بالغباوة والتغابي
واذ تُقنى المعالي بالتمني ... واذ يُغزى الاعادي بالسباب
واذ تُعطى الاريكة في النوادي ... وتُعطى التاج في هزل الخطاب

وبعد ذلك دخلت الجنود الانكليزية الى القاهرة وعادت السلطة الى الخديوي توفيق وحوكم عرابي ورفاقه فحكم عليهم بالاعدام فاستبدل الخديوي هذا العقاب بالنفي الى جزيرة سيلان . فشيعه الناس يومئذ في مصر والشام باناشيد عامية كما يستقبلونه الآن بقصائد ومن تلك الاناشيد قولهم

يادبني وانتَ ديني ... يازهر البساتين
املي الكاسات واسقني ... بالسنه مرة

يادبني كتاكوت ... يادبني كتاكوت
عرابي باشا عا يموت ... كشحوه برا

وما زال عرابي باشا ورفاقه في جزيرة سيلان حتى صدر العفو عنهم في هذا العام من الجناب الخديوي المعظم مولانا عباس باشا الثاني فاخذوا يعودون الى وطنهم الذي غادروه في حال ويجدونه في حال

﴿ منفاه ﴾ اما «سيلان» التي كانت منفى عرابي ورفاقه فهي جزيرة انكليزية في جنوبي الهند عدد سكانها ثلاثة ملايين نفس وربع مليون وعاصمتها مدينة «كولومبو». ولهذه الجزيرة تمدن قديم تدل عليه الآثار القديمة التي لا تزال فيها . وقد روى العالم الطبيعي الروماني بلين الكبير ان جزيرة «تابروبانه» (كما كانوا يسمون سيلان في تلك الايام) اوفدت اربعة سفراء الى الرومانيين للتقرب من حكومتهم . وقد ساح في سيلان السائح الصيني (فاهيين) في القرن الرابع للميلاد المسيحي وكتب تفاصيل رحلته وفيها من الاعجاب بفخامة بنيان مدينة (انورادا روبا) التي كانت عاصمتها واتساع عمرانها ما يدل على مبلغ حضارتها في ذلك الزمان . ويقال ان هذه المدينة كانت محاطة بصور عظيم يضم بين جدرانه مساحة ٢٥٠ الف ميل وقدم بناؤه في القرن الاول للميلاد . وآثار هذه المدينة باقية الى اليوم

اما سكان هذه الجزيرة فهم خليط من الفداهيين والسنجاليين . والاولون قبائل متوحشة تعيش في الجبال والاحراش والآخرون متمدنون بعض الشيء . وكان قرصان العرب يشنون الغارة على سيلان قبل عام ١٥٠٥ ويعودون منها بالاسلاب والغنائم فبعد هذا التاريخ نزل البرتغاليون في الجزيرة وحالفوا ملوكها فكانوا اول مستعمريها . ثم قلب البرتغاليون ظهر المجن للسكان واستولوا على شواطىء الجزيرة كلها وفي عام ١٦٠٢ جاء الهولانديون واتحدوا مع السكان عليهم فغصبوهم الشواطىء وحلوا محلهم . وفي القرن الثامن عشر جاء الانكليز في نوبتهم وحلوا محل الهولانديين فطردوهم عن آخرهم في عام ١٧٩٥ وفي عام ١٨١٥ استقلوا بالجزيرة وخلعوا ملكها الذي كان وطنياً وكان يُدعى ملك قنديا نسبة الى احدى مدن الجزيرة

ولسيلان اليوم اهمية تجارية عظمى لانها طريق جميع السفن التي تسير الى الهند والشرق الاقصى ولذلك يُنتظر ان يكون ثغر كولومبو عاصمتها من اعظم ثغور العالم في المستقبل . ويقدرون عدد سكان هذه المدينة بمائة وستين الف نفس . وفي الجزيرة غير سكانها الاصليين والنزلاء الاوروبيين كثيرون من المغاربة والجافاويين والصينيين والهنود . وفيها مغاوص للحجارة الثمينة

الامُّ وابنتها

﴿ اخلاق الامبراطورة فردريكة ﴾

لم تكد تخمد جمرة الحزن على كبيرة ملكات العالم وملوكه الملكة والامبراطورة فيكتوريا حتى انقدت جمرة حزن اخرى على ابنتها الامبراطورة فردريكة والدة الامبراطور غليوم الثاني . وبما اننا اقفلنا باب « مشاهير المتقدمين والمتاخرين » في هذا الجزء دون ان نذكر فيه ترجمة سيدة مشهورة كما وعدنا في الجزء الماضي فاننا نعود في هذا الفصل الى ما فاتنا هناك لاطلاع القراء على لمع من اخلاق الامبراطورة فردريكة وما قاسته في حياتها من العناء ولا سيما مع البرنس بسمارك الذي كان خصماً شديداً لها ليعلم الناس ان المصائب والمتاعب لا تقتصر على اكواخ الفقراء بل انها تشمل قصور العظماء

ولقد تزوج البرنس فريدرك غليوم ولي عهد المانيا بالبرنسس فردريكة وهي في زهرة الشباب فكان المستقبل بساماً في وجهها . ولكنها ما نزلت في البلاط الالماني حتى علمت بما

سنقاسيه فيه من العناء . فان اهل البلاط كانوا ينظرون اليها نظرهم الى شخص غريب عنهم اذ لم يكن من الفة يومئذٍ بين الالمان والانكليز . وكان اشدهم وطأة عليها البرنس بسمارك فانه كان يراقبها اشد مراقبة لانها كانت زوجة ولي العهد ويخشى ان يكون لها تاثير سيء على زوجها . وكان يسميها « تلميذة غلادستون » او « الانكليزية » او « الاجنبية » ويجعل جرائده تحمل عليها حملات شديدة . ولذلك قالت فردريكة في ذات يوم قولاً يدل على مبلغ سخطها عليه . فانها كانت يوماً في قصر بوستدام فطلبت ماء فنهض البرنس بسمارك بنفسه وجاءها بكاس ماء على طبق . فالتفتت فردريكة الى احدى نسائها وقالت لها : ان هذا الرجل جعلني اذرف دموعاً بقدر ما في هذه الكاس من الماء . وكان ذلك في عام ١٨٦٧

ثم كانت حرب السبعين فبلغ بسمارك بعدها اوج العز والعظمة فازداد مراقبة للاميرة فردريكة لا سيما وان زوجها البرنس فردريك غليوم اصيب بداء السرطان في حنجرته . وقد كتب بوش صديق بسمارك في مذكرته عنه انه قال ما نصه « نحن سيئو البخت في مسالة الزواج . فانه اذا تزوجت اميراتنا بامراء اوربا وملوكها انحزن الى وطنهن الجديد كل الانحياز كالاميرة الالمانية التي اقترنت بملك بافاريا واعتنقت المذهب الكاثوليكي والاميرة الثانية التي اقترنت بالقيصر واعتنقت بالمذهب الارثوذكسي . اما الاميرات الاجنبيات اللواتي يتزوجن بامرائنا فانهن يبقين على الانحياز الى وطنهن القديم ويفضلن مصلحته على مصلحة المانيا نفسها . مثال ذلك هذه الانكليزية » يعني البرنسس فردريكة

وفي اثناء ذلك كانت البرنسس منصرفة الى العناية بزوجها المصاب . فكانت تسهر على فراشه ليلاً ونهاراً بنشاط يدل على حبها له ومعرفتها واجباتها . وكان الامبراطور غليوم الاول قد شاخ والالمانيون يتوقعون وفاته من عام الى عام ولذلك كان الاهتمام بمرض ولي العهد البرنس فردريك غليوم عظيماً جداً . وكان على فراشه فريقان من الاطباء فريق انكليزي وفريق الماني فكان الدكتور الانكليزي يتهم الالماني بالجهل والالماني يتهم الانكليزي بالمضاربة بالبورصة على حياة وارث الملك . ولما اتفقوا على اجراء عملية جراحية لولي العهد اختلفوا على الانبوبة التي تتخذ للعملية فالالمان طلبوا ان تكون المانية والانكليز طلبوا ان تكون انكليزية ورغبة في التوفيق بين الفريقين تقرر جعل الانبوبة اميركية بناء على طلب الدكتور توماس ايفان الاميركي

اما البرنس بسمارك فانه كان يقول في ذلك الوقت لبوش صديقه « ان مرضه السرطان

ولا نجاة من هذا المرض » فكانه كان مسروراً بذلك ليخلو له الجو في الامبراطورية . واما البرنس فردريك غليوم فانه ما كان يطمع في النجاة ولكنه كان يطمع في الوصول الى العرش ولو يوماً واحداً لمكافاة الاميرة فردريكة زوجته . ففي ٨ مارس من عام ١٨٨٨ ورد الخبر بوفاة الامبراطور غليوم . وكان الامير قد تعافى قليلاً بعد العملية الجراحية . فاجتمعت حاشيته كلها في قاعة القصر وفي جملتها الاميرة فردريكة والامير فردريك زوجها الذي صار امبراطوراً خلفاً لابيه . فاخذت الاميرة فردريكة تبكي . وكان بكاؤها لسببين الاول حزنها على وفاة الامبراطور غليوم الاول والثاني ذكرها الاهانات التي لحقت بها من البرنس بسمارك قبل وصولها الى العرش الامبراطوري . وكان الجميع مطرقين في تلك الساعة ينتظرون كلام « الامبراطور الجديد » واذا به قد نهض الى المائدة ووقع بيده على المنشور الامبراطوري المؤذن بارتقائه الى العرش . ثم دنا من فردريكة وفي يده حمائل وسام النسر الاسود فطوق عنقها به بهيئة جدية . فانطرحت فردريكة بين ذراعيه وصارت تبكي . فالتفت حينئذ « فردريك الثالث » الى اطبائه وقال لهم . اشكركم لانكم جعلتموني احيا الى وقت استطيع فيه مكافأتها على اخلاصها وحبها

غير انّ الامبراطور فردريك كان لا يزال مريضاً بدائه . وكان نجله وولي عهده البرنس غليوم (الامبراطور غليوم الحالي) من مريدي بسمارك والمعجبين به في ذلك الزمان ففي يوم عيد البرنس بسمارك شرب الامير غليوم نخبه بهذه العبارة « ان الامبراطورية الالمانية تشبه اليوم سفينة ربانها جريح ملقى امام الدفة . ففي وسط حزننا الحاضر يجب ان نوجه انظارنا الى حامل رايتنا وعمدة سياستنا اعني مستشار الامبراطورية العظيم . امدّ الله في عمره »

فكانّ البرنس غليوم كان مع البرنس بسمارك على والدته . وليس ذلك بغريب فقد روي عنه انه قال منذ سنوات « من لي بمن ينتزع هذا الدم الانكليزي من عروقي » ولعل ذلك لا يخلو من مبالغة

ومن اقوال البرنس بسمارك في الامبراطورة فردريكة « ان هذه المراة تقلق افكار زوجها بكثرة كلامها . فانها لا تفتأ تنصحه وتعظه وهو ضعيف عن مقاومتها . ولو لم اكن انا ساهراً على راحته ومستعداً كل حين للدفاع عنه لكان خطبه كبيراً » وقد روى هذا الكلام بوش المذكور آنفاً . ومما رواه ايضاً عن لسان البرنس بسمارك قوله « انني اخشى من سلطة هذه المراة على رجلها وشدة طاعته لها » قال شارح هذا القول فكانّ بسمارك كان

﴿ الامبراطورة فردريكة ﴾

ام امبراطور المانيا واخت ملك انكلترا

يكره كل شيء للامبراطورة حتى اتفاقها مع زوجها

ولكن لم يتسنَّ لهذه الامبراطورة المسكينة ان تنال المنزلة التي كانت تطمح لها في امبراطوريتها والتي كان يخشى بسمارك من وصولها اليها لانَّ زوجها الامبراطور فردريك الثالث توفي بالسرطان بعد انقضاء اربعة عشر اسبوعاً على ملكه فدخلت زوجته الامبراطورة

في زاوية النسيان . ولم تستطع الانتقام من بسمارك الا مرة في حياتها . ذلك انه لما قام النزاع الشديد بين الامبراطور غليوم الحالي والبرنس بسمارك واعيت البرنس الحيل في اقناع الامبراطور بالعدول عن سياسته راى ان يتخذ لذلك آخر حيلة في يده . فقصد الامبراطورة فردريكة وسالها التوسط بينه وبين ابنها . فرفعت راسها بعظمة واجابته — انك قاومتني في حياتي ووضعت من الحواجز بيني وبين ابني ما يجعلني الآن بلا سلطة عليه فاذا كنت عاجزةً عن افادتك الآن فالذنب لك لا لي . فانحنى بسمارك وخرج صامتاً . وفي اليوم التالي اعلن استقالته

والظاهر ان داء السرطان الذي قتل زوجها قد سرى اليها ايضاً فماتت به في اوائل الشهر الماضي بعد مرض طويل اختتم حياتها بالعذاب كما مرَّت بالعذاب . ولذلك تمنى اخوها جلالة الملك والامبراطور ادوار السابع امام اعضاء مؤتمر السل حين مقابلتهم اياه ان يكتشف احد العلماء دواء للسرطان فيخلد اسمه بهذا الاكتشاف

نشر صفحات مطوية

بلاد مصر

﴿ وكيف كان يصفها كتاب العرب ﴾

« ذُكرت مصر في القرآن العزيز في اكثر من ثلاثين موضعاً كما قاله السيوطي في كتابه حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة بعضها بطريق الصراحة وبعضها بطريق الكناية وقد ورد في مصر عدة اخبار منها ما روي عن كعب بن مالك عن ابيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا افتتحتم مصر فاستوصوا باهلها خيراً فان لهم ذمة ورحماً . وفي صحيح مسلم عن ابي ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ستفتحون مصر وهي ارض يسمى فيها القيراط فاستوصوا باهلها خيراً فان لهم ذمة ورحماً . وقال صلى الله عليه وسلم اذا فتح الله عليكم فاتخذوا بها جنداً كثيفاً فذلك الجند خير اجناد الارض فقال ابو بكر ولم يارسول الله قال لانهم وازواجهم في رباط الى يوم القيامة

واما حديث ان مصر ستفتح فانتجعوا خيرها ولا تتخذوها داراً فانه يُساق اليها اقل

الناس اعمارًا فهو حديث منكر جدًا وقد اورده ابن الجوزي في الموضوعات

ومن الآثار الموثوقة في فضل مصر ما اخرجه ابن عبد الحكم عن عبدالله بن عمرو قال قبطُ مصر اكرم الاعاجم كلها واسمحهم يدًا وافضلهم عنصرًا واقربهم رحمًا بالعرب عامة وبقريش خاصة ومن اراد ان ينظر الفردوس او ينظر الى مثلها في الدنيا فلينظر الى ارض مصر حين تخضر زروعها او تنمو اثمارها. واخرج ابن عبد الحكم عن ابي رهم السماعي الصحابي رضي الله عنه قال كانت مصر قناطر وجسورًا بتقدير وتدبير حتى ان الماء ليجري تحت منازلها وافنيتها فيمسكونه كيف شاؤُا ويرسلونه كيف شاؤُا فذلك قوله تعالى فيما حكى عن فرعون أليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجري من تحتي افلا تبصرون. ولم يكن في الارض يومئذٍ ملك اعظم من ملك مصر وكانت الجنات بحافتي النيل من اوله الى آخره من الجانبين جميعًا ما بين اصوان الى رشيد سبعة خلج. خليج الاسكندرية وخليج سخا وخليج دمياط وخليج منف وخليج الفيوم وخليج المنهى وخليج سردوس جنات متصلة لا ينقطع منها شيء والزرع ما بين الجبلين من اول مصر الى آخرها وكان المسافر يسير من اسكندرية الى اصوان بلا زاد في ظل واشجار وفواكه الى ان يصل الى مدينة اصوان

وعن عبدالله ابن عمر رضي الله عنهما قال لما خلق الله تعالى آدم مثل له الدنيا شرقها وغربها سهلها وجبالها وانهارها وبحارها وبناءها وخرابها ومن يسكنها من الامم ومن يملكها من الملوك فلما رأى مصر رأى ارضًا سهلة ذات نهر جارٍ مادته من الجنة تتحدر فيه البركة وتمزجه الرحمة وراى جبلاً من جبالها مكسوًا انوارًا لا يخلو من نظر الرب اليه بالرحمة في سفحه اشجار مثمرة فروعها في الجنة تُسقى بالرحمة فدعا آدم في النيل بالبركة ودعا في ارض مصر بالرحمة والبر والتقوى وبارك في سهلها وجبلها سبع مرات

وعن عبدالله بن سلام قال مصر ام البركات تعم بركتها من حج بيت الله الحرام من اهل المشرق والمغرب وان الله تعالى يوحي الى نيلها في كل عام مرتين عند جريانه يوحي اليه ان الله يامرك ان تجري فيجري كما يؤمر ثم يوحي اليه ثانيًا ان الله يامرك ان تغيض حميدًا فيغيض. وان بلد مصر بلد معافاة واهلها اهل عافية وهي آمنة ممن يقصدها بسوء. ومن ارادها بسوء كبه الله على وجهه ونهرها نهر العسل ومادته من الجنة وكفى بالعسل طعامًا وشرابًا.

وعن كعب قال في التوراة مكتوب مصر خزائن الله كلها من ارادها بسوء قصمه الله. وعن عقبةُ بن مسلم ان الله يقول يوم القيامة لساكني مصر يعدد عليهم النعم اما

اسكنتكم مصر فكنتم تشبعون من خيرها وترووون من مائها . وقال ابو الربيع السائح نعم البلد مصر يحج منها بدينارين ويُغزى منها بدرهمين يريد الحج من بحر القلزم والغزو الى الاسكندرية وسائر سواحل مصر

وقيل ان يوسف عليه السلام لما دخل مصر واقام بها قال اللهم اني غريب فحببها الى كل غريب فمضت دعوته فليس يدخلها غريب الا احب المقام بها .

وكان بها من حكماء الطب والهندسة والكيمياء وعلم النجوم والرصد والطلسمات والحساب عدة منهم افلاطون وبطليموس وسقراط وارسطاطاليس وجالينوس وكان في الازمنة الاول يذهب الى مصر ارباب العلوم والحكم لتكون اذهانهم على الزيادة وقوة الذكاء وولد بها عدة من الانبياء وهم موسى واخوه هرون ويوشع بن نون

ودخل اليها عيسى وتوجه الى الصعيد ثم اقام بقرية هناك تسمى اهناش ودخلها ايضاً ابرهيم الخليل ويعقوب ويوسف والاسباط وارميا ودانيال ولقمان الحكيم عليهم السلام. ودفن بها من الصحابة والتابعين جماعة كثيرة وكان من اهلها مؤمن آل فرعون الذي اثنى عليه الله في كتابه وكذا آسية امرأة فرعون وسحرة فرعون الذين آمنوا في ساعة واحدة مع كثرتهم .

وقال المسعودي ان كل قرية من قرى مصر تصلح ان تكون مدينة على انفرادها. وقال القضاعي لم يكن في الارض اعظم من ملك مصر فانها لو زُرعت جميعاً لوفت بخراج الدنيا باسرها ويوجد في مصر في كل شهر نوع من الماكول او المشموم فيقال رطب توت ورمان بابه وموز هاتور وسمك كيهك وماء طوبه ورميس اي خروف امشير ولبن برمهات وورد برموده ونبق بشنس وتين بؤنه وعسل ابيب وعنب مسرى . والسبع زهرات التي تجتمع في اواخر الشتاء في وقت واحد ولا تجتمع في غيرها من البلاد وهي النرجس والبنفسج والورد النصيبي والمجاني وزهر النارنج والياسمين والنسرين

وان اهل مصر الغالب عليهم الافراح واتباع الشهوات والانهماك في اللذات وتصديق المحالات وفي اخلاقهم رقة وعندهم بشاشة وملقة ولا ينظرون في عواقب الامور وعندهم قلة الصبر في الشدائد والقنوط من الفرج وشدة الخوف من السلطان ويخبرون بالامور المستقبلة قبل ان تقع . ويقال مصر باقوالها . ذكر ذلك في جواهر البحور »

(لعبد الله بن حجازي الشرقاوي)